

هاجس الغربية عند أبي إسحاق الإلبيري

عباس يداللهى فارساني*

تاريخ الوصول: ٩٣/١/٥

زينب رضاپور**

تاريخ القبول: ٩٣/٧/٣٠

الملخص

تعتبر الغربية والشعور بالوحدة من المضامين العريقة في الأدب الذي نشأ نتيجة التدهور في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات البشرية. يستهدف البحث دراسة ظاهرة الاغتراب؛ مفهومه، بواعثه وأصدائه في شعر أبي إسحاق الإلبيري. لقد عاش الشاعر بيئة حفلت بالصراعات السياسية والفكرية والعقيدية والتزمت الدينى مما هبياً الأرضية المؤاتية لظهور هاجس الغربية والانعزال فى شعره. اعتمدنا فى البحث على ديوانه الشعرى لتحليل الاغتراب وتمثيل نماذجه لديه. أخيراً خلص البحث إلى أن العاملين الهامتين قد أسهما أعظم إسهام فى نزوعه نحو الاغتراب؛ هما الدين والتدهور الخلقى والاجتماعى. من ثم حفل شعره بالثورة والتمرد على الأعراف السائدة دفعاً للبدخ والتصرف والتيارات الإلحادية فى المجتمع. من أهم أصداء الغربية فى شعره، الاغتراب الدينى، والمكانى، والاجتماعى والروحى.

الكلمات الدليلية: الاغتراب، أبي إسحاق الإلبيري، الزهد، الشعر الأندلسى.

Farsiabas@gmail.com

* أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشهيد چمران أهواز.

zeinabrezapour@gmail.com

** أستاذة مساعدة فى قسم اللغة الفارسية وآدابها، جامعة الشهيد چمران أهواز.

الكاتب المسؤؤل: عباس يداللهى فارساني

المقدمة

الاغتراب (Alienation) من المضامين العريقة في الأدب التي تحتوى على البُعد والشعور بالوحدة في الحياة وإن كان الإنسان يراود أبناء جنسه، ومن ثمّ ليس ظاهرة جديدة ظهرت إثر التطورات الأدبية والسياسية في الآثار الأدبية، بل ظاهرة قديمة قدم الإنسان على الكرة الأرضية؛ فمنذ إخراج آدم (عليه السلام) من الجنة أخذت بوارق الغربة والوحشة تلمع في صفحات الحياة الإنسانية. إذا حاولنا الكشف عن جذور الاغتراب في الأدب العربي نرى أنها تكمنت في مطالع القصيدة الجاهليّة عقب حينهم إلى الأوطان ووصف الأطلال والدمن والوقوف عليها والبكاء على رسومها المندرسة. يُعدّ الملك الضّلّيل من الشعراء الجاهليين الذي أكثر من ترداد الاغتراب في شعره قائلاً:

أجارتنا إن المزار قريبٌ وإني مقيمٌ ما أقام عسيبٌ
أجارتنا إننا غريبان هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبٌ

(امرؤ القيس، ١٩٨٩م: ٣٥٦)

يشير الاغتراب في طياته إلى الانسلاخ والانعزال والانفصال عن المثل السائدة وأعراف المجتمع الإنساني. انطلاقاً من هذا الموقف، يشعر المغترب بالانطواء على النفس. يعبر هذا الشعور عن هروب الإنسان من الواقع واللجوء إلى عالم خياليّ للعثور على فقدان ما في الحياة من الآمال والطموحات، ومن ثمّ نرى في شعر الشعراء المغتربين أنّهم يقعون في عواصف شديدة من التناقض والتعارض والاصطدام بين الحياة الواقعية والخيالية ويمثلونها كما هي مطلوبة ومتوقعة.

تفاقت هذه الظاهرة في الأدب نتيجة التطورات الفكرية والسياسية واعتناق المذاهب الفلسفية المختلفة، وورودها في مجال الأدب وتعرّف الشعراء على الإنتاجات الأجنبية خاصة في مجال الفلسفة والعلوم الحديثة. قد تأثر الشعراء بالفكر الأجنبي عامّة ... ونفذت آراؤه في الشرق العربي (عبدالفتاح ملحس، د.ت: ٢٨٥).

حاولنا في بحثنا هذا تسليط الأضواء على ظاهرة الاغتراب في شعر الإبيري، الشاعر الأندلسي الزاهد، عثوراً على أصداء الاغتراب، أنماطه، بواعثه ومحاوره في شعره. إنّ الذي حملنا على اختيار الموضوع تمرّده على الواقع وطموحه إلى بناء مجتمع مثاليّ ونموذجيّ. إذا ألقينا نظرة فاحصة إلى ديوانه الشعريّ نلاحظ أنّ العاملين الهامّين قد أثرا في تكوين

الشعور بالغربة والعزلة لديه وهما السياسة والتدهور العامّ في الظروف المحيطة به. المراد بالسياسة هو ما أشاعت الدول السائدة في عصره من الفساد والتهم، والمراد بالتدهور العامّ شيوع البذخ والترف والمجون في المجتمع الأندلسي إثر الأسباب المختلفة التي لم تكن بصددها في هذه العجالة.

منهج البحث

اعتمد في إعداد البحث على منهج التحليلي الوصفي معتمداً على المصادر الأدبية في الأدب الأندلسي خاصة ديوان الإلبيري الشعري لتمثيل نماذج الاغتراب ومحاوره.

خلفية البحث

لقد تطرق الباحثون والدارسون إلى دراسة شعر الإلبيري من جوانب مختلفة واهتموا به، لكنهم لو يدرسوا شعره من موقف الشعور بالاغتراب وتمثيل نماذجه ومحاوره. حاولنا في هذا البحث أن نزيل الستار عن أنماط الاغتراب، بوصفه أهمّ أصداء فكرية وثقافية تبلورت في تضاعيف مقطوعاته الشعرية كشفاً عن أهمّ أنماط الاغتراب والعوامل التي ساقّت الشاعر مساق التعبير عن الشعور بالغربة والوحشة.

يشار هنا إلى بعض الدراسات التي أجريت في شعر الإلبيري:

- ١- «قراءة في آلية الصورة من خلال شعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري»: أ.عبد/حميد جوى. مجلة قراءات. جامعة محمد خيضر. بسكرة.
- ٢- «اللغة في شعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي»: أ.عبد/حميد جوى. مجلة قراءات. جامعة محمد خيضر. بسكرة.
- ٣- «الموسيقى الشعرية في شعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي»: أ.عبد/حميد جوى. مجلة علوم اللغة العربية وآدابها. جامعة الوادي. العدد الرابع ١٢٠٢م.
- ٤- «التجربة الزهدية بين أبي العتاهية وأبي إسحاق الإلبيري (دراسة موازنة)». رسالة جامعية. محمود لطفى نايف عبدالله. جامعة النجاح الوطنية. ٢٠٠٩م.

الاغتراب من منظور اللغة والمصطلح

يتبين مما سبق أنّ الاغتراب يعبر في تضاعيفه عن عدم الرضا ورفض الرسوم المنطمة السائدة ومحاربتها، وانعزال الفرد عن المجتمع وسلوكه مسلك الثورة والتّمرد والاحتجاج، لأنّه يرى مسافة شاسعة بين الواقع والمطلوب. الاغتراب، لغةً الابتعاد والتّحنّي عن الوطن وكذلك الغربة والغرب والتّغرب (ابن منظور، مج ١٠، ١٩٨٨م: مادة غرب). ومن الناحية الاصطلاحية هو التّزوح عن الموطن أو البعد أو الانفصال عن الآخرين وهذا يمتّ بصلة وثيقة إلى المعنى الاجتماعي الذي يتّضح من خلاله أنّ هذا الانعزال والابتعاد لا يمكن أن يتجلّى من غير أحاسيس نفسية، كالخوف والحنين والقلق تكوّنه أو ترافقه أو تنتج عنه (رجب، ١٩٧٨م: ٤٣). قد عرفه الآخرون بأنّه «حالة نفسيّة اجتماعيّة تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعي» (إديث، ١٩٩٣م: ٣٦٩).

أسباب نشوء الغربة في الأدب الأندلسي

ساهمت عوامل وأسباب مختلفة لنشوء الشعور بالاغتراب في الأدب الأندلسي، فمنها ما تعود إلى الأسباب الداخلية كإقامة الحجّ، والاستزادة من العلوم والبحوث في البلدان المتأخمة، التجارة وطلب المعاش، ومنها ما تعود إلى الظروف التعسة التي انتابت المجتمع الأندلسي من انتشار الخمر وحاناتها، التساهل الديني، انتشار بيوت الدعارة والنخاسة، شيوع مجالس الشراب واللهو، وتدفق الثروات الهائلة عن طريق الخراج والضرائب وفتح البلدان. فاضطرت الشعراء إلى التهجير وقطع المسافات الشاسعة.

هذه الأسباب هي التي نطلق عليها «الأسباب الخارجية» وهي ما تمتّ بصلة وثيقة إلى حياة الناس في المجتمع الأندلسي. من النقاد من ذهب إلى أنّ الاغتراب نشأ في الأدب الأندلسي نتيجة «الحروب والفتن الداخلية التي حلّت بمدن الأندلس، وأبرز هذه الفتن التي انعكست آثارها في الشعر الأندلسي، الفتنة القرطبية، ومنها- ولعلّها أقوى عوامل الغربة والحنين- الحروب المستمرة بين المسلمين والأسبان وقد اتقدت جذوتها بعد سقوط طليطلة كبرى حواضر الأندلس» (بهجت، ١٩٧٨م: ٤١٢).

نظرة إلى حياة الإلبيري وأحداث عصره

يعدّ إبراهيم بن مسعود التحيبيّ الغرناطيّ من أبرز وأهمّ الشعراء الأندلسيين الذي نُفِيَ إلى البيرة، فأصبح يعرف بالإلبيري. ولد الشاعر نحو سنة ٣٧٥ للهجرة وترجّل عن صهوة الحياة سنة ٤٧٨ للهجرة. لقد عاصر الشاعر طيلة الحياة دولة العامريين بالأندلس ودولة الطوائف وذاق مرّ الحياة وحلوها ورأى تقلبات الدهر وما ألمّ بالملوك من نوائب الدهر وحدثانه مما ضافره على تكوين مخزونه الثقافي والفكري.

ليس للإلبيري شاعراً فحسب، بل كان فقيهاً ورعاً وزاهداً نبذ الدنيا وملذاتها. ويعود شهرته إلى قصيدته المشهورة في التحريض على البطش باليهود حينما ازداد طغيانهم. اتخذ الشاعر الشعر وسيلة طيبة للتعبير عن آرائه الزهدية وبثّ مخزونه الفكري والثقافي واتجه إلى الشعر الزهدي منسحباً عن جلب الحياة وضوائفها. لقد ساهمت الأسباب المختلفة في سوق الشاعر مساق التعبير عن الشعر الزهدي فمنها التدهور في الظروف العقيدية والفكرية، انتشار اللهو والفسق في المجتمع الأندلسي وانغماس الملوك في البذخ والترف والإقبال العارم للناس على تثمير المال والعقار والتأنق في الملابس والأطعمة مما مهّد أرضية مناسبة لشيوع المغريات والملذات الجسدية.

اتخذ الشاعر أدبه بصورة عامة وشعره بصورة خاصة كردّة فعل أمام ما جرى في المجتمع من البذخ والترف والمجون الذي اجتاح البلدة.

أنماط الاغتراب عند الإلبيري

إذا أمعنا النظر في شعر الإلبيري نلاحظ أوجه مختلفة من الاغتراب لديه؛ فمنها الاغتراب الديني، والمكاني، والاجتماعي، والروحي، والزماني، والعاطفي والسياسي. لكنّ البحث لا يتسع للتطرق إلى جميع هذه الأنماط، بل نتناول أبرزها وأهمها.

أ. الاغتراب الديني

أول ما يبدو لنا في تضاعيف أشعاره من الاغتراب هو الاغتراب الديني والعقيدى الذي نشأت جذوره من خلال التلاعب بالدين من جانب المتنفيين والساسة، ورواج الخلاعة والمجون ونسيان الأوامر والنواهي الدينية في المجتمع الأندلسي. نستطيع أن ندرك من

خلال شعره أنّ التّأزم في القضايا السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية من أهمّ الأسباب في تكوين اغترابه الدينيّ والعقيدى، لأنّ الحكومة السّائدة اتّخذت الدّين والثوابت الدينية ذريعة لكبت الحريّات ونشر الاختناق والتخويف. إذا دققنا النظر في الظروف السائدة على المجتمع الأندلسي لا نجد شيئاً سوى الرّكود والتخلّف والانحطاط الخلقيّ، لأنّ شعراء الأندلس الذين نشأوا وترعرعوا في مثل هذه الظروف التعسة كانوا فتحوا عيونهم على حقيقة مليئة بالرّكود والتخلّف، حقيقة تعاني من الهبوط الرّوحى والمادّيّ يكاد يعمّ جميع شؤون الحياة.

من نماذج شعره ما يقول:

أطيرُ إليه منشورَ الجناح	ألا خَبرٌ بمنتزح النواحي
سيأسو ما بديني من جراح	فأسأله وألطفه عساه
بنور هدى كمنبلج الصّباح	ويجلو ما دجا من ليل جهلى
وأهجرها وأدفعها براحي	فأبصقُ فى محيّا أمّ دفرٍ
عفاً عن جأذرها المِلاح	وأصحو من حميّاها وأسلو

(الإلبيري، ١٩٩١م: ٤٩-٤٨)

لقد عمد الشاعر في هذه المقطوعة إلى الكشف عمّا ألم بالمجتمع الأندلسي من الانحراف العقيدى والحياد عن تعاليم الدين الحنيف، وإقبال الناس العارم على الملذات الجسدية ومتاع الدنيا الزائل معبراً عن الألم والحرقه عن ضياع الثوابت الدينية، ومن هنا نجد أنّ الشاعر يزيل القناع عن وجه الدين ويفصح عن دوره المحورى والرئيسي في رقى المجتمع الإنسانى.

إذا أردنا الوقوف على الظروف السائدة في المجتمع خاصة الأوضاع الدينية نرى أنّ الرّياء والفسق وبذخ الحكّام وترفهم واغتصاب الأموال كان من أهمّ ميزاته العامّة. كان عصره حافلاً بالتعصب الأعمى والصراعات الدينية المختلفة بين الملل والنحل الفكرية. فمن ثمّ ذهب الشاعر إلى أنّ معظم الناس في هذا العصر قد ابتعدوا عن الدّين وكسدت سوق الحكمة وفسد مزاج المتشرعين. يصرّ لنا الشاعر مجتمعه مليئاً بالعدر ومعاقره الخمر واكتناز المال وشيوع الرّياء.

يتبين لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر عاش بيئة مليئة بالفسق والفساد والإقبال على الملذات الجسدية والذنيوية، خاصّة من قبل الحكّام وصار الدين نسيّاً منسياً. فظهرت بصمات واضحة من الشعور بالغربة والتصادم مع ما ساد المجتمع الإنساني من الرذائل والموبقات، وتكوّنت لديه بذور التمرد والنضال، فالشعور بهذا النمط من التناقض والتصادم «مع ما هو قائم علامة على الاغتراب» (شاخت، ١٩٨٠م: ٥٠).

لكنّ الشاعر وجد الانعزال والابتعاد أفضل طريق للنجاة. فالتجأ إلى زاوية واكتفى بالانزاع اليسير من الحياة واختار الزهد والنسك وخلص نفسه من صخب الحياة وترك الدنيا وزخارفها ومباهجها الفاتنة ورافق الزهد بالحكمة في شعره داعياً إلى الدين الحنيف. يحاول الشاعر من خلال شعره أن ينهض بالمجتمع الإنساني من سباته العميق الذي أصاب معظمهم ويفتح عيون الناس أمام المثل الدينية النبيلة ويصعدهم، فسيطرة البذخ والترف والإقبال على الملذات شلّت قدرتهم على الإبداع والتفكير ومنعهم من الإشعاع الفكري والحضاري، ومن ثمّ يطمح الشاعر إلى بلورة هذا التطور الجذري وشكل هذا الوعي مساحة واسعة من الإنجاز الإبداعي ونراه من خلال شعره يحرض الناس على بعث التراث الإنساني والعقيدى والحضارة الدينية ورافدها الفكرية والتاريخية المتجذرة في كيانهم.

ب. الاغتراب المكاني

للمكان دور بارز وهامّ في التكوين الخلقى والنفسي والروحي للإنسان والانتماء بالمكان يكشف عن لون من الذبّ عن الهوية الحقيقية والوجود الطبيعي للإنسان، فيعدّ المكان من المكونات الفكرية والنفسية لدى الشاعر، فضلاً عن الفضاء الفكري والنفسي والثقافي ويرتحل مع الشاعر حيث يحلّ. ومن ثمّ يعتبر الانتماء بالوطن والمكان نمطاً من الأنماط الإنسانية ولا يخلو أي ثقافة أو أمة من هذه الظاهرة.

يمكن أن يحدث للإنسان أن يعيش بين أبناء البشر يعاملهم ويرادوهم، لكنّه يبقى بينهم غريباً منعزلاً عنهم. هذا الأمر ليس بعجيب، لأنّ الإنسان عندما يشعر بأنّ المجتمع لا يوافق قولاً وفعلاً وفكراً ويحاول الطرد والكبت والمخاصمة يضطرّ أن ينجو بنفسه حتّى يأمن من الأذى ويستريح باله، فلم يوفق الشاعر الانصهار في المجتمع وتياره الفكري والثقافي أو أن يتجانس معه واتجاهاته في مختلف المستويات، فبقى منعزلاً منفرداً.

فى الحقيقة يمثّل الاغتراب المكانى التجربة الحياتية المفعمة بأصداء الحياة المعاصرة التى يعيشها الشاعر المغترب، ويستهدف الشاعر من خلاله الإفصاح عن نوع من التغيير فى الواقع المرّ المحيط به.

إذا أمعنا النظر فى شعر الإلبيرى نرى أنّه كان مغترباً بين أبناء جنسه فى المجتمع الأندلسى رغم أنه كان يعيش معهم. عندما تلقى نظرة عابرة إلى شعره نجد أنّه تمتّع بهذا النوع من الاغتراب. وهكذا نجد أنّ الانغلاق المكانى الذى يمثّله هذا النمط من الغربة يُظهر نفسه عبر التدايعيات والذكريات الحلوة التى تجاوزت الحدود المألوفة، ومن ثمّ يخلع عليه الشاعر المغترب إحساسه المرهف وحالته الروحية والنفسية.

ومن نماذج قوله ما يقول:

وكم من مجيبٍ كان فيها لصارخ	تُجابُ إلى جدوى يديه السَّباسبُ
وكم من نجيبٍ أنجبتَه وعالمٍ	بأبوابهم كانت تُناخ الركائبُ
لعهدى بها مبيضة الليل فاغتدت	وأيامها قد سوّدتها النوائبُ
وما كان فيها غير بشرى وأنعمٍ	فلم يبقَ فيها الآنَ إلاّ المصائبُ
وكم بلغت فيها الأمانى وقُضيت	لصَبِّ لساناتٍ بها ومآربُ
وأين بحار العلم والحلم والندى	وأين الأكفُّ الهامياتِ السواكبُ
وأن قد قست أكبادكم وقلوبكم	وما منكم داعٍ إلى الله راغبُ
لشكلكم أولى وأجدر بالبكا	على مثله حقّاً تقوم النوادبُ

(الإلبيرى، السابق: ٨٨-٨٧-٨٦)

تبين لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر المغترب ينمّ عمّا انتابه من الوحدة والوحشة والسقم والحزن، فقضى رداً من الزمن فى الصراع المحتدم من الحياة التى حاول فيها فرض النفس المغتربة على الكون والوجود. لقد وصف الشاعر فى الأبيات التالية ما حلّ بالمجتمع الأندلسى من المصائب والويلات وما أدّى إلى خيبة الأمل والأمانى الحلوة وانعدام الأمن والسلام، فلم يجد من خلال ذلك مخرجاً ومنفساً للأشجان المنطوية والألم المكبوت والمشاعر الدفينة.

ظهر من خلال هذا الصراع المرير لون من ألوان «الأناء» فى النسيج الشعرى الذى يقابل «الآخر» وهياً أرضية مؤاتية لظهور حالة الانفصال، التى أحسّها الشاعر بين أبناء

جنسه، وعدم قدرته على التلائم والانسجام معها. فأدّى هذا الأمر إلى رفض كل ما يتسم به المجتمع الأندلسي من الخداع والغشّ والكذب والنفاق.

يتضح لنا من خلال الاغتراب المكاني في شعر الإيبيري أنّ هذا النمط من الاغتراب لم يكن شيئاً سوى «محاولة الذات التغلغل في قلب الحقيقة دون أن يمستها ابتذال الواقع واستبطان المحسوس للوصول منه إلى الوحدة الكلية التي ترتد إليها مظاهر الوجود وأعراضه» (فتوح أحمد، ١٩٧٨م: ٣٣٣).

يتمحور اغترابه المكانيّ حول ما لاقى من مواطنيه من الإيذاء وسلوكهم السيّء واختلط اغترابه بالشكوى من الدهر وجوره، وبثّ ما في كوامنه من ألم الفرقة والوحدة في الأندلس ولا يزال يذكر بلده وما حلّ بها من الفساد والتدمير والأعراف البالية مذكراً أيامه التي قضاها فيها. صار مسقط الرأس قضية مصيرية تركت بصمات واضحة على صعيدي النفس والشعر بعد ما أحبطت مساعيه في مجال إقامة الصلات المتبادلة والوطيدة بينه وبين أبناء البشر في المجتمع الإنساني، وخذلوه في ساعة الضيق ولاقى من الناس قلة الشكر لمعروفه وتنكر الناس له، فلا بدّ أن يحسّ بالغربة بينهم ويشتدّ حنينه وبهيج ذكرياته. تتواصل الضغوط النفسية «لتجسد الإحساس الحادّ بالانتماء إلى «المكان» والانجذاب إليه والتشبث بترابه، وتتضافر أساليب التعجب المتعاقبة في استحضار «المكان» في أجمل صورته وهياكلته وأزمته» (عيسى، د.ت: ٧٦). فمن ثمّ يلعب الوطن وتراجه العطر دوراً محورياً وبارزاً في شعره الزهدي تنفيساً عما عانى فيه من الظلم والبطش والتهم.

ج. الاغتراب الاجتماعي

تجدّرت الغربة الاجتماعية وما تحتوي على السخط والغضب والتّمرد في كيان الشاعر من جرّاء عدم توافق مبادئه مع مبادئ الآخرين واصطدامها، وحينما أمعنا النظر في شعره نرى أنّه لم يعبر عن هذه الغربة إلا أن يحفل شعره بالتبرّم والضجر والسّامة. في الحقيقة نشأ هذا النوع من الاغتراب إثر عوامل عدّة، منها الظلم والتعسف الاجتماعي، الانحطاط الخلقى والعقيدى والتهالك على الملذات الجسدية والمادية، والتفاوت الطبقي الهائل بين فئات الشعب المختلفة الذي انتاب المجتمع.

عندما أراد الشاعر أن ينجو بنفسه من مأزق الغربة، اتخذ التّهجير والنّوى أفضل طريق للنجاة منه، فوظّف الزهد والورع كأداة لتضميد ألم الفرقة وما تعقبه من الحزن والإحباط. المراد بالاغتراب الاجتماعي هو انفصال الإنسان عن المجتمع أو عن الآخرين أو عن القيم والأعراف السائدة فيه أو عن النظام السياسي وما يعقب ذلك من الشعور بالألم والحسرة والفراق أو بالتشاؤم والقنوط وما ينطوى عليه من سخط أو ثورة أو نقمة وتمرد (سلامي، ٢٠٠٠م: ١٥١).

إنّ التدهور سياسياً كان أم اجتماعياً أو اقتصادياً أو عقدياً، كان من أهم الأسباب في نشوء الاغتراب في الشعر الأندلسي، ويعدّ التدهور في الظروف المختلفة من أهم الأسباب التي انجرت إلى انطواء الشعراء على أنفسهم والألم يعصر قلوبهم ونفوسهم، ومن ثمّ تبلورت بصمة الألم والتمرد لديهم.

إذا كانت البيئة الاجتماعية لم توافق وفكرة الشاعر الزاهد، فإنّه اختار التمرد والعصيان لإصلاح الموجود والوصول إلى ما هو مطلوب. تجلّت أصداء تمرده على النظام الحاكم وشنّ هجمات عنيفة على ما ساد المجتمع من الرسوم والعادات البالية داعياً إلى التعديل الخلقى والديني في المجتمع الأندلسي. نستطيع أن نعتبر الفشل والإحباط في الإصلاح إحدى بواعث اغترابه الاجتماعي. شاهد الشاعر طوال حياته عاهات كثيرة انتابت المجتمع، من أهمها التفاوت الطبقي الهائل بين فئات الشعب واستثمار الناس. بناءً على هذا، وجد الشاعر في التفاوت الطبقي واستغلال الأفراد للشعب معياراً لمأساة المجتمع، فخلق شعره فضاءات سوداً من الصراع بين التمرد الخلقى والأعراف الاجتماعية مما جعل معظم الناس يضطغنون عليه.

عندما شاهد الإيبيري فقدان الصلة بين الواقع وعالم الحلم أدى هذا الأمر إلى نشوء التناقض والتعارض في كيانه، فساقه مساق التصادم بين الواقع كما هو في المجتمع وبين المطلوب كما ينبغي أن يكون، وكان الشاعر على ثقة بأن أحلامه وأمانيه ليست سوى أصداء عميقة من الشعور بالغربة بين أبناء جنسه، فأكرهم واتخذهم رمزاً للخيبة والغربة الاجتماعية والانفصال عن قيم المجتمع، وخلق في نفسه نوعاً آخر من المجتمع الإنساني الذي يقوم على أساس مبادئ سامية نبيلة ليستعيد من خلالها تلك الوشائج والعلاقات المفقودة ويحسّ في ظلّها بشيء من الطمأنينة والدعة. فاضطلع التصادم

والتقابل بدور هامّ في تعميق المعنى وتكثيف التجربة الذاتية والإفصاح عن الموقف النفسى للشاعر وتجسيده وإثرائه والتعبير عمّا انتابه من الحزن والأسى. ومن نماذج شعره ما يقول:

حللتُ به فننّس ما بنفسى	وأنسنى فما استوحشتُ فيه
وكم ذيبٍ نجاورُهُ ولكن	رأيتُ الذئبَ أسلمَ من فقيه
ولم أجزع لفقد أخٍ لأنى	رأيتُ المرءَ يُؤتى من أخيه
وأيأسنى من الأيام أنى	رأيتُ الوجهَ يزهّدُ فى الوجيه
فأثرتُ البعاد على التدانى	لأنى لم أجد من أصطفيه

(الإلبيري، السابق: ٨٣-٨٤)

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ الإحباط الاجتماعى من أهم الأسباب التى ساقته نحو الانعزال الاجتماعى، وظهرت أصدائه فى ديوانه الشعرى حيث نشاهد نمطاً من الصراع الميرير بين ذاته والبيئة المحيطة به التى تتمثل من خلال عدم الشعور بالانتماء والقلق أو بالشعور بفقدان المعنى واللامبالاة ومركزية الذات والانعزال الاجتماعى (خيرى حافظ، ١٩٨٠م، ٩٧)، فصبّ جام غضبه على الساسة والمتنفذين وأصحاب الثروات الهائلة الذين يحاولون انحراف المجتمع الإسلامى عن أسسه الدينية والعقائدية. فضلاً عن ذلك انتشرت الفوضى فى أرجاء القطر وانعدم الأمن وما تعرّضه بعض الشعراء من اضطهاد ونفى من الحكام والساسة خاصة حينما تدهورت الظروف السياسية إثر هجمات النصارى واليهود الغاشمة على المدن الأندلسية، وكان الأمر من أهمّ البواعث التى أدّت إلى ظهور الاغتراب فى الأدب الأندلسى خاصة عند الشعراء الزهاد الذين لم يجدوا المجتمع الأندلسى موافقاً لأرائهم الزهدية.

إذا أمعنا النظر فى تضاعيف قصائدهم نجدها تتميز بشحنة كثيرة من العواطف المتأججة، التى تعبّر فى أصدق صورة عن تشوّقهم إلى بناء عالم نموذجى وإقامة الشعائر الدينية من عند أنفسهم. انطلاقاً من هذا الموقف، نجد فى ثنايا المقطوعات الشعرية أنّ الشعور بالاغتراب يؤرقهم ويلهب مشاعرهم وأحاسيسهم الدفينّة، فجاء شعرهم الزهدى شحنات نفسية دافقة بالمرارة والألم ممزوجاً بالغربة والحنين، إذ خلق فى كيانهم نوعاً من

الإثارة النفسية مما أعانهم على تصوير مشاعرهم النفسية والروحية والعاطفة الإنسانية الملتاعة وإحداث الاستجابة الوجدانية. لقد اكتظت مواقفه الاجتماعية بالاضطراب والخوف وزرعت في كيانه لونا من القلق والضغط الروحي، حيث ينتابه الشعور بتفاهة الحياة وعدم جدواها ويلجّ على الانسلاخ من انتمائه القيمي داعياً إلى عالمه الخاص الذي يبلغ فيه الاغتراب ذروته فبقى الصوت الأقوى للفردية.

د. الاغتراب الروحي

يعبّر الاغتراب الروحي عن طموح الإنسان إلى عالم مثالي نموذجي. حينما نذكر الاغتراب الروحي نقصد به «تلك الحالة التي يشعر به الفرد بانفصاله من ظرف إنسانيّ مثاليّ، فيتطلّع إلى الانعتاق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه» (محمد راضي، ١٩٩٩م: ٤٥).

تجلّى الاغتراب الروحي عند الإلبيري في إطار نزعاته التأمليّة حول ثنائية الحياة والموت، تصوير الطامة الكبرى وما ينتظره الإنسان في تلك الحياة الخالدة من ثواب أو عقاب، مغبة الإنسان في الحياة الدنيا والحشر والنشور. لا يزال يطرح أسئلة تزيد حيرته، لكنّه لم يحصل على إجابة مقنعة وتورّط في زوبعة من أسئلة دون إجابة. ضرب الاغتراب الروحيّ جذوره في القضايا التي تتمحور حول غاية خلق النظام الكونيّ وفلسفة الحياة والموت وآرائه الميتافيزيقية.

تبلورت جذور الاغتراب الروحي لديه في الفكرة التي ذهبت فيها إلى أنّه اعتبر الجسم بمثابة سجن للإنسان، فعليه أن يحاول النجاة من هذا السجن المظلم المخيف. تذكّرنا هذه الفكرة بعقيدة أبي العلاء المعري الذي سمّى نفسه «رهين المحبسين» أو «رهين المحابس الثلاثة» حيث أنشد في ديوانه «اللزوميات»:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظري، ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

(المعري، ج١، ١٩٨٣، م: ٢٤٩)

لقد اعتبر الإلبيري هذه الدنيا بمثابة السجن الذي أسر فيه الإنسان ولا يستطيع أن يخلص نفسه من هذا السجن إلاّ من خلال اتباع المثل الدينية والشعائر الإسلامية وهى الطريق الوحيد لفلاح الإنسان فى الدنيا الفانية.
ومن ثمّ يقول:

سُجنتَ بها وأنتَ لها مُحبٌّ فكيف تُحبُّ ما فيه سُجنتا

(الإلبيري، السابق: ٣٩)

تعبّر هذا البيت عن ذلك الألم الدفين والعاطفة الصادقة التى امتزجت بالحنين والقلق والضياء والغربة عن العالم النموذجى والمثالى المفقود، وهذا مما ينسجم مع الجوّ النفسى والفكرى الذى ألمّ بالشاعر المغترب، وساعده على تجسيد الظروف النفسية التى يعيشها. اختلط الدّين وما يتصل به من المفاهيم فى كيان الشعراء المغتربين خاصة عند الزّهّاد والنّسّاك الذين تركوا الدنيا ومتاعها الزائل وانكبّوا على الورع والتقوى، ومن هذا الموقف يقترب الزّهّاد من المتصوّفين و«لا شك أنّ الوصول إلى هذا الفهم مرّ بمراحل وصل فيها مفهوم الزهد بصورته البسيطة إلى هذا المعنى الخاص لدى الصوفية عن غربة الرّوح فى الجسد بل فى هذا العالم» (أشرف على، ٢٠٠٢م: ٤٥).
لقد تأثر الشاعر من خلال هذه الفكرة بالحديث النبوى الشريف الذى يقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» (ترمذى، د.ت: ٥٦٧).

علاقة الموت بالاعتراب الروحى عند الإلبيري

يستحوذ الخوف والرّهبة من الموت على نفسية الإلبيري، فهذا الأمر ممّا جعل الشاعر يعبّر عن هواجسه الدفينة ومكنوناته النفسية. عندما يتحدث الشاعر عن الموت والفناء فإذا هو يتجه نحو الإفصاح عن رهبة الموت وتصوير الطامّة الكبرى والاعتبار والتحذير منه والاستعداد التامّ للرحيل الأعظم من خلال التزوّد من صالح الأعمال، ونبذ الدنيا ومغرياتها بكبح النفس الطاغية وتمارينها على الرياضة، والانصراف عنها والاصطبار الجميل والإقبال على النزول اليسير من الحياة والقناعة والابتعاد عن الاستزادة. ممّا لا ريب فيه أنّ الشاعر أراد من خلال التذكير بالموت وتصوير أهواله تسليّة الناس وتعزيتهم وتمهيد أرضية مناسبة لتقديم النصح والموعظة طرْحاً لهذا السؤال فى نفسه: لماذا لا يعتبر الناس من

الموت وجرائره؟ رغم أنهم يعيشون فى الغى واللامبالاة طالباً بتحذيرهم من الموت وغوائله. وكان الشاعر على ثقة بأن الدنيا ليست على حالة واحدة وديدنهما عدم الثبات والاستقرار وإن هى إلا دار قلعة لا تليق بالاطمئنان.

لقد ميّز فرويد بين النوعين من القلق: القلق الموضوعى الذى هو استجابة واقعية للخطر المدرك والناجم عن البيئة، ويوازى هذا المفهوم للقلق مفهوم الخوف، أمّا النوع الثانى فهو القلق العصابى الناجم عن صراع لا شعورى داخل الفرد، لا يكون الفرد عادة على وعى بأسبابه (عدس وآخرون، ٢٠٠٢م: ٢٧٠)، ويبدو أن قلق الإيبيرى من النوع الثانى القلق العصابى.

لقد رافقت فى شعره قضية الإيمان العميق بالموت مع فكرة عدم الاغترار بالدنيا والإقبال عليها، خاصة أنّ التعاليم الإسلامية تحذّر من الاغترار والافتنان بالحياة الدنيا، فضلاً عن الآيات الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم التى تحرّض الإنسان على عدم الافتنان بنعيم الدنيا الزائل وملهياتها. قد ورد هذا الموضوع فى الروايات الإسلامية التى تشير إلى الموضوع نفسه، فمنها قول النبى (ص) حيث يقول: «كن فى الدنيا كأنّك غريبٌ أو عابرسيل وعدّ نفسك فى أهل القبور» (ترمذى، السابق: ٧٥٦).

ارتبطت فكرة الحياة والموت عند الشاعر بالرؤية الدينية وبما خلفته الأحداث الاجتماعية والسياسية فى نفسه من الخيبة والحزمان، إثر انغماس الناس فى ملذات الدنيا ومغرياتهما. فالتأمل فى قضية الحياة والموت عنده ناجم عن صميم إيمانه وعقيدته الخالصة؛ خاصة أنه يُعدّ شاعراً دينياً حمل على عاتقه بثّ المثل والثوابت الدينية العليا. ظهر هذا الأمر فى شعره بصورة جليّة حيث نجد أنّ الشاعر يرفض بشدة حبّه للدنيا ومباهجها الفانية ويحاول التخفيف من شدة هذا الحرص والاستزادة، ويدعو إلى تحقيرها وعدم الافتنان بها تحذيراً من مغباتها وتذكيراً بفنائها وعدم استقرارها، فأكثر من ترداد تلك الحياة التى تليق بالإنسان المؤمن وأطال التأمل فيها والحديث عن خداع الدنيا والبعث والحياة الأخرى.

نراه يقول:

فقوموا لربّي واسألوه نجاتي
لعلّ إلهي يقبل الدعوات

فيا إخوتي مهما شهدتم جنازتي
وجدوا ابتهالاً فى الدعاء وأخلصوا

وقولوا جميلاً إن علمتم خلافه
ولا تصفوني بالذى أنا أهله
ولا تتناسوني فقدماً ذكرتكم
أناجيكم وحيأ وإن كنت صامتاً
وأغضوا على ما كان من هفواتي
فأشقى وحلّوني بخير صفاتٍ
وواصلتكم بالبرّ طولَ حياتي
ألا كلّكم يوماً إلى سيّاتي

(الإلبيري، السابق: ٦٣)

يتضح لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر استخدم أسلوب الحوار ليضفي على الشعر بُعداً درامياً مستهدفاً ترسيخ المعنى لدى المتلقى، فهذا الأمر مما يساعده على تصوير أهوال الموت ومخاوفه حينما يشاهد القبور والعظام النخرة. فيدلّ هذا الأسلوب في طياته على الاستعداد المفاجيء للموت والتأهب للتزوّد بصالح الأعمال والإقلاع عن المعاصي والملاهي والإنابة إلى الله تعالى.

الغربة والحنين إلى الشباب

يتبين لنا من خلال إمعان النظر في شعر الإلبيري أنّ فكرة الموت وتصوير الشيخوخة في تضاعيف مقطوعاته الزهدية ساقته مساق التخلّي والانصراف عن متاع الدنيا الزائل. لقد بكى الشاعر على فقدان الشباب وعهد النضارة والطراوة متحسراً على أيام الشباب وتلك الحياة المضيئة والمشرقة. فالصراع بين الشباب والمشيب في شعره يدلّ على ثنائية الحياة والموت أو البقاء والفناء. الشباب هو مظهر الفرح والقدرة والبقاء والشيخوخة صورة من صور الضعف والفتور والتخلّي عن العبث واللهو وهي تؤذن بقرب الموت.

لا ريب أنّ هذه الكراهية من المشيب تصور في طياته فكرة الموت وقرب النهاية ويعانى الشاعر من استحالة عود الأيام الماضية التي اكتظت بالتصايب والمرح والنشاط. إنّ المتأمل في شعر الإلبيري في مرحلة الشيخوخة يجد أنّ مقطوعاته في هذه الفترة الزمنية اصطبغت بطابع الرثاء والمناسبة التي تنسجم مع ما كان عليه الشاعر من الظروف الروحية والنفسية، فمن ثمّ «لا المال الكثير يخفف من فقره الروحي ولا الشهرة العريضة تدخل الرضا إلي ضميره» (الناعوري، ١٩٥٩م: ٧٤).

عثر الشاعر في مرحلة الشيخوخة على شيء من الهدوء والدعة عقب ما مرّ به من الوبلات والفتن والأزمات الروحية والنفسية في محطة ربيع العمر (مرحلة الشباب)، فنراه

دائماً يتحسر على فقدان تلك الأيام الماضية مذكراً ما حلّ به في مرحلة الشيخوخة من الضعف والفتور والونى متشبيهاً بماضيه، فصار نهباً لأحلام اليقظة والصحوة التي اعتبرها مجالاً أوسع لتحقيق الذات والتعويض عما فات.

من أمثلة قوله ما ورد:

أرى الأعصار تعصر ماء عودي وقدماً كنت ريان القضيب
أدال الشيبُ يا صاحُ شبابي فَعَوَّضْتُ البغيضَ من الحبيب
وَبَدَّلْتُ التثاقلَ من نشاطي ومن حسن النضارة بالشحوب

(الإلبيري، السابق: ٣٦)

يتضح لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ غربة الشاعر ازدادت عندما يحسّ بدنوّ أجله، وهذه الصورة من الغربة تعدّ أبعد صور الاغتراب خوفاً واضطراباً وكفى بالموت اغتراباً، فتمزّقه الغربة ويكويه ألم الفراق ونكأ جرحه ويشير رواسته التي استقرت في كيانه. تعبر هذه الغربة عن تلك المشكلة القديمة والصراع المحتدم بين الإنسان والدهر، فالدهر دائماً بالمرصاد يذلّ بعد العزّة، يذهب بالشباب، يبعد عن المكان، يفرّق بين الأحباب، يشتت العقد النظيم بينما الشاعر الأندلسي يحاول أبدأً اختلاس لحظات المتعة حتى إذا دار الزمان وحان المشيب وتغيرت الأوطان وبين الماضي والحاضر تنشطر حياة الشاعر شطرين: شطر النعيم والأنس، وشرط الغربة والحنين (طحطح، ١٩٩٣م: ٥٢-٥١).

وكلما امتدّ الزمن إلى الأمام تراجع الشاعر إلى الوراء كأن هناك تسابقاً عكسياً بين الطرفين، فالزيادة تعنى النقصان، والتقدم يعنى التأخر. إنه الصراع الأزلى بين الإنسان والزمن (نفسه: ٢١١). فلم يبق الشاعر أمام مرور الزمن خاصة عهد الشباب مكتوف الأيدي، بل يحاول استعادة الماضي المفعم بالنشاط والحياة بغية تحويله إلى فن شعري يترسخ أمام التطورات والتحويلات الطارئة عليه.

نتيجة البحث

يتبين لنا ممّا سبق أنّ الاغتراب والانعزال تقدّم في الأدب تقدّم الإنسان في الحياة ولا يزال يرافقه ويتجذّر في كيانه. فمذ تكوّنت المجتمعات البشرية وُجد الاغتراب في حياتها. ظهر الاغتراب في الأدب الأندلسي وتطوّر نتيجة التقدم العلمي والحضارى في

المجالات المختلفة والوقوف على المذاهب والآراء الحديثة خاصة فيما يتعلق بغاية الحياة والقضايا الميتافيزيقية.

قد حصل البحث على نتائج هامة، منها ما تلى:

١- تنوعت و كثر فروع الاغتراب فى الأدب، منه الاغتراب الدينى والاجتماعى والمكانى والزمانى والروحى.

٢- الاغتراب هو الهروب من الواقع المؤلم المحيط بالفرد واللجوء إلى ما هو مطلوب. هذا ناجم عن التأزم فى الأوضاع المختلفة كالاقتصاد والسياسة.

٣- قد أسهمت عوامل عدة فى نشوء الاغتراب لدى الشاعر، لكن السياسة والانحلال الدينى والخلقى احتلّا الصدارة بين الأسباب الأخرى. لم يكن الغرض من السياسة والانحلال فى عصره سوى التلاعب والتزمت ونفى المخالفين وتوجيه التّهم وانتشار البذخ والترّف، لأنّه قد عاش بيئة حفلت بالصراعات السياسية والفكرية والنعرات الطائفية. عندما قنط الشاعر من الإصلاح فى المجتمع وباعت جهوده بالفشل اتخذ الانعزال والتّنحّى أفضل طريق للوصول إلى الغايات.

٤- اتّخذ الشاعر الزّهد أداة للتخلص من مرارة الغربية وألم الفرقة. من ثمّ صار الزهد والتنسك لديه هو الطريق الوحيد للقضاء على لسعة الغربية، فنراه يملأ شعره بالمواعظ والنصائح والمثل الإنسانية السامية.

٥- إنّ الصروف والنوائب التى مرّت بالشاعر طيلة حياته جعلته يسخط على الدهر ويطلق اللسان على ذمّه وأهله. بناء على هذا، وردت فى شعره ألفاظ تعبّر عن الاكتئاب والاعتراب كاليهود، الثورة، الحساد، الدهر والخطوب ويصوّر هذا الأمر مدى سخطه على أبناء الدهر والظروف التعسة المحيطة به.

٧- تبين لنا من خلال المقطوعات الشعرية تجليات الشوق والحنين إلى الوطن وأهله.

٨- امتاز لغة الاغتراب عنده بالسذاجة فى القول والكلام بحيث اقتربت لغته من النفس وتخلّت عن التعقيد والغموض ويمثّل صورة جليّة من الأحاسيس والمشاعر المكبوتة.

٩- قد أثرت تهمة الإلحاد والزندقة فى نزعتة نحو الاغتراب والانعزال. بناء على هذا، يصوّر اغترابه نوعاً من التّقد اللادع للقضايا الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، جمال الدين محمد. ١٩٨٨م، لسان العرب، مج ١٠، نسقه وعلّق عليه على سيرى، ط ١، بيروت- لبنان: دار إحياء التراث العربى للطباعة والنشر.
- إديث، كريزويل. ١٩٩٣م، تعريف بالمصطلحات الأساسية الواردة فى كتاب عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، ط ١، الكويت: دار سعاد الصباح.
- أشرف على، الدعدور. ٢٠٠٢م، الغربية فى الشعر الأندلسى عقب سقوط الخلافة، ط ١، القاهرة: دار نهضة الشرق.
- الإلبيرى، إبراهيم بن مسعود. ١٩٩١م، ديوان أبى إسحاق الإلبيرى الأندلسى، حققه محمد رضوان الداية، بيروت- لبنان: دار الفكر المعاصر.
- امرؤ القيس. ١٩٨٩م، الديوان، تحقيق حنا الفاخورى، ط ١، بيروت: دار الجيل.
- بهجت، منجد مصطفى. ١٩٧٨م، الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة، بيروت: دار القلم.
- ترمذى، محمد. لا تا، سنن، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة: مكتبة دار نهضة مصر.
- خيرى حافظ، أحمد. ١٩٨٠م، سيكولوجية الاغتراب، القاهرة: جامعة عين الشمس.
- رجب، محمود. ١٩٧٨م، الاغتراب، مج ١، الإسكندرية: منشأة المعارف المصرية.
- سلامى، سميرة. ٢٠٠٠م، الاغتراب فى الشعر العباسى القرن الرابع الهجرى، ط ١، دمشق: دار البناييع.
- طحطح، فاطمة. ١٩٩٣م، الغربية والحنين فى الشعر الأندلسى، ط ١، منشورات كلية الآداب بالرباط.
- عدس، عبدالرحمن ونايفة قطامى. ٢٠٠٢م، مبادئ علم النفس، عمان: دار الفكر.
- محمد راضى، جعفر. ١٩٩٩م، الاغتراب فى الشعر العراقى المعاصر مرحلة الرواد، دمشق: اتحاد الكتّاب العرب.
- المعرى، أبو العلاء. ١٩٨٣م، اللزوميات، مج ١، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.
- الناعورى، عيسى. ١٩٥٩م، أدب المهجر، مصر- القاهرة: دار المعارف.